المحاضرة الأولى: التعريف بالعلامة ابن خلدون (1406-1232م)

1. من هو ابن خلدون؟ما هي أهم أعماله وانجازاته العلمية؟

نحاول أن نعرض في هذه المحاضرة الظروف الزمانية والمكانية التي وجدت فيها شخصية ابن خلدون وعن أهم الرحلات التي قام بها خاصة في المغرب العربي، من تونس مسقط رأسه إلى المغرب والجزائر والاندلس ومصر مرورا بسوريا والحجاز، ومن ثم نذهب للتفصيل أكثر في انجازه العلمي المتمثل في مؤلفه الشهير **"المقدمة"**.

لمحة تاريخية عن ابن خلدون

- **ولادته، نسبه: نشأته ودراسته:**

هو عبد الرحمن ابن خلدون ولد بتونس سنة 732هـ (1232م) حدد بنفسه نسبه اليمني الحضرمي الذي يؤول به إلى أوائل بن حجر من قبيلة كندة، ونسب نفسه إلى اسم أحد أجداده وهو خالد المعروف بابن خلدون، وقد دخل ابن خلدون الأندلس مع جند اليمانية وحل بإشبيلية سنة 92هـ، وقيل في القرن الهجري الثالث (9م)، وتولى أفراد هذه الأسرة مناصب تربوية وإدارية[1].

وقد شغل أجداده في الأندلس وتونس مناصب سياسية ودينية مهمة وكانوا أهل جاه ونفوذ، نزح أهله من الأندلس في منتصف القرن السابع الهجري وتوجهوا إلى تونس، وكان قدوم أهله إلى تونس خلال حكم الحفصيين[2].

نشأ ابن خلدون في بيت علم وسياسة، وتوارثت أسرته الاشتغال بالقضاء. حفظ القرآن بالقراءات السبع، ودرس الحديث والفقه الملكي على يد أبي عبد الله بن برال، وتلقى علوم العربية والشعر على يد والده وعلى مشاهير علماء تونس. ودرس عند العديد من العلماء المغاربة (الوافدين إلى تونس مع أبي الحسن المريني الذي احتلها سنة 758هـ) التوحيد والفلسفة والمنطق، فتضلع في العلوم العقلية، وحذق فن الكتابة ...والخ، مما سهل عليه التأليف وتولي

---

[1] أبو عمران الشيخ، معجم المشاهير المغاربة، جامعة الجزائر، 1995، ص 192.

[2] بن فرج الله بخته، اسهامات ابن خلدون في بناء نظرية اجتماعية عربية، مجلة الدراسات والبحوث الاجتماعية، جامعة لحمة لخضر- الوادي، العدد مارس 21،2017، ص9.

مناصب، وقد تزوج حوالي سنة 754هـ. ولكن بعد فقد والده وشيوخه شقت عليه الإقامة والدراسة في تونس[3].

- **مسيرة حياته: تنقلاته ووفاته:**

رحل ابن خلدون بعلمه إلى مدينة بسكرة حيث تزوج هناك، ثم توجه سنة 1356م إلى فاس حيث ضمه أبو عنان المريني إلى مجلسه العلمي واستعمله ليتولى الكتابة مؤرخا لعهده وما به من أحداث، وقدر لابن خلدون رحيل آخر عام 1363م إلى غرناطة ومن ثم إلى إشبيلية ليعود بعد ذلك إلى بلاد المغرب، فوصل إلى قلعة بني سلامة (مدينة تيارت الجزائرية حاليا) وأقام بها أربعة أعوام، وأثناء هذه العزلة في قلعة بني سلامة ألف مقدمته المشهورة التي تعتبر الجزء الأول من كتاب (العبر) ثم احتاج إلى التحقيق والتنقيح في المصادر فرغب في العودة إلى تونس مقر آبائه وأثارهم ، وحل بتونس سنة 780هـ (1378م).

جاب معظم البلدان العربية، حيث أقام في الأندلس ومصر وبلدان المغرب العربي وزار الحجاز وبلاد الشام. عاش حياة متقلبة بين النفوذ والاضطهاد وبين القصور والسجون فكانت حياته زاخرة فعلا وعملا. نشأ في أسرة علم وكان أبيه ملتقى للعلماء وأهل السياسة فاكتسب حب العلم والبحث وحب الجاه والمنصب.

ولم يتوقف نشاطه بعد مغادرة بلدان المغرب للإقامة بالقاهرة، بل كان ينتقل بينها وبين الحجاز للحج، والقدس لزيارة المقامات ودمشق[4].

وبينما كان ينتظر لحاق أهله من تونس فجع بخبر غرقهم في عاصفة بحرية "وذهب الموجود والسكن والمولود" كما قال. فعظم مصابه ومال إلى الزهد وأشفق عليه السلطان فترك منصب القضاء وعكف على تدريس العلم والقراءة وقضى بقية حياته في العبادة إلى وافته المنية بالقاهرة في 25 رمضان عام 808هـ الموافق ل 17 مارس 1406م[5].

- **نشاطه وشخصيته:**

---

[3] أبو عمران الشيخ، معجم المشاهير المغاربة، مرجع سبق ذكره، ص 192.
[4] بن فرج الله بخته، اسهامات ابن خلدون في بناء نظرية اجتماعية عربية، مرجع سبق ذكره، ص9.
[5] أبو عمران الشيخ، معجم المشاهير المغاربة، مرجع سبق ذكره، ص 193.

تقلد ابن خلدون في حياته عدة مناصب عليا، فعمل سفيرا وحاجبا وعضوا بمجلس العلماء والقضاء عند عددا من السلاطين في تونس والجزائر والمغرب واسبانيا، كما أنه أيضا تعرض للنفي والإقصاء والعزل وحتى السجن، فقد سجن في المغرب لوحدها مدة عامين.

لهذا لم ينعم بالهدوء والاستقرار سوى أربع سنوات قضاها في قلعة ابن سلامة (أو بني سلامة في الجزائر) 1375- 1378م بعيدا عن شواغل السياسة، وكانت هذه العزلة أخصب فترات حياته في الإنتاج العلمي وقد أنهى فيها تأليف مؤلفه المعروف بالمقدمة خلال خمسة أشهر قضاه في التأمل والكتابة وهي الكتاب أو المجلد الأول ضمن أشهر كتبه، كتاب: "العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر" الذي يقع في سبعة مجلدات[6].

يعتبر ابن خلدون من أشهر الفلاسفة الذين برزوا في المغرب الإسلامي أمثال ابن باجه (المتوفي عام 533هـ- 1138م)، والفيلسوف الصوفي محي الدين ابن عربي (المتوفي638هـ - 1240م)، حيث تعتبر المقدمة، أهم انتاج علمي في العصر الإسلامي الوسيط، وتعد ابتكارا فريدا في فلسفة التاريخ والحضارة علم الاجتماع.

- **وفاته:**

توفي ابن خلدون في مصر بالقاهرة ودفن فيها عام (808ه- 1406م)، بعد صولات وجولات عرفناها منه من خلال ما دونه عن سيرة حياته، التي كانت بمثابة رحلات علمية وسياسية، عكست خبرات وتجارب مهدت أمامه طريق التدوين والتنظير.

2. الظروف العامة التي عاصرها ابن خلدون:

لم تكن الظاهرة الخلدونية مجرد تراكم معرفي للعصور السابقة له، بل فكره يعبر عن عبقريةفذة تمكنت من الإلمام بكل جوانب التراث الإسلامي، وإبداعاته كانت مستخلصة من مشاهداته المباشرة خلال معايشته قبائل البدو في مجتمعات المغرب العربي، "فهو فيلسوف واقعي وضعي بمعنى الكلمة، فكل انتاجاته الفكرية في علم العمران البشري والاقتصاد والتاريخ

[6]بن فرج الله بخته، اسهامات ابن خلدون في بناء نظرية اجتماعية عربية، مرجع سبق ذكره، ص10.

والسياسة والتربية وغيرها من المجالات كانت صورة صادقة، وثمرة ملاحظاته التي جمعها والخبرات التي اكتسبها خلال إقامته بين العشائر البدوية وممارسته لنشاطه السياسي"[7]، مع العلم أن "ابن خلدون" عاش فترة زمنية اتسمت بالتراجع الفكري وتهميش العقل ونهاية الخلافة الإسلامية، وبداية التفكك والاضطراب في مختلف أنحاء العالم الإسلامي، حيث ظهرت العشرات من الإمارات المستقلة والمتصارعة والمتكالبة فيما بينها، فقد خرجت الأندلس في عصر"ابن خلدون" من حوزة المسلمين إلامنطقة صغيرة منها لبني الحمر و كانت تشمل غرناطة والمرية وجبل الفتح،أي الامتداد المسيحي، أما بلاد المغرب فقد كانت مقسمة إلى ثلاث دول: دولة بني مرين(الدولة المرينية)[8] في المغرب الأقصى وعاصمتها فاس، ودولة بني الواد(الدولة الزيانية)[9] في المغرب الأوسط، وعاصمتها تلمسان، ودولة بني حفص(الدولة الحفصية)[10] في المغرب الأدنى وعاصمتها تونس، كانت هذه الدول متصارعة فيما بينها، وكانت كل الدولة تتسع و تتقلص، وكان أفراد الأسرة المالكة يتنافسون فيما بينهم فيحارب بعضهم بعضا، وكان هؤلاء يستعينون بالعشائر البدوية للوصول إلى الحكم. أما العالم الأوروبي فقد كان خلال هذا العصر على وشك الانتقال من أواخر القرون الوسطى إلى أوائل عصر النهضة، كما أن ابن خلدون كان معاصرا ل "جون فرواسار"[11] في فرنسا، ولأبن بطوطة(1377-1304م) ولسان الدين الخطيب(1374-1313) في البلاد العربية، وليس بين ولادة "ابن خلدون" ووفاة الشاعرالايطالي " دانتي"(1321-1285) إلا 11 سنة، وهذا دليل على عصر ابن خلدون لم يكن خاليا من أعلام الفكر، إلا أن عبقريته فاقت جميع ما كتب في عصره.**(1)** و قد ترك" ابن خلدون" مؤلفات منها: رسالة في المنطق و أخرى في الحساب،

7جميل صليبا، تاريخ الفلسفة العربية،ص 546.

8الدولة المرينية: قامت بعد انهزام الموحدين من طرف تحالف ممالك البرتغال والأسبان، التي شكلت نقطة تحول حاسم في تاريخ المسلمين في الأندلس وانحصر دور الموحدين في قيادة المغرب، وصاحبه انتشار الفوضى

9الدولة الزيانية(1554-1236): سلالة زيانية، اسمها نسبة إلى يغمرا سنبن زيان، وقد كان الزيانيون ولاة للجزائر من قبل الموحدين وعندما ضعف أمر الموحدين انفصلوا عن المغرب الأوسط.

10الدولة الحفصية: مؤسسها أبو زكريا يحي الحفصي، تمكن من تأسيسها عندما كان واليا من قبل الدولة الموحدية بالمغرب الأقصى، التي كانت البلاد التونسية تابعة لها، اغتنم ضعف الدولة الموحدية فأعلن الاستقلال وتأسيس الدولة الحفصية سنة 1229.

11 جون فرواسار (1410-1337م):رجل دين و شاعر،و مؤرخ، يعتبر أحد مؤرخي العصور الوسطى.

تلخيص لبعض كتب ابن رشد، و شرح لقصيدة البردة، و تلخيص لكتاب"المحصل" للإمام فخر الدين الرازي، و لم يذكر هذه المؤلفات "ابن خلدون" في كتاب "التعريف" الذي هو ترجمة حياته، و لم يصل إلينا منها شيء، على أن "ابن خلدون" تحدث عن كتاب أخر في وصف بلاد المغرب ألفه في دمشق وقدمه إلى تيمور، وأشهر مؤلفاته والتي وصلت إلينا كتاب "العبر" الذي يحتوي على قسمه الأول"المقدمة" وقد بقي هذا المؤلف مجهولا عند الأوروبيين إلى غاية القرن 19م، بعد أن طبعت سنة 1857 بمصر، وباريس سنة 1858م على يد المستشرق(كاترمير)، ثم ترجمت إلى اللغة الأوروبية، أولها الترجمة الفرنسية وهي ترجمة دوسلان سنة 1862م، ثم إلى البرتغالية سنة 1958م ثم الانجليزية سنة 1958 ثم توالت الترجمات الأخرى[12].

في الأخير يمكن اختصار حياة ابن خلدون في هذه النقاط الهامة:

- الرغبة في تعلم العلوم الدينية والعبر الدينية في طفولته وشبابه بدعم من والده، لذلك قطع شوطا كبيرا في تحصيل العلوم، حيث حفظ القرآن الكريم على القراءات السبع.
- أخذ إجازته الأولى والثانية من الحديث والفقه وألم بكتبهما.
- بنفس القدر الذي سطع فيه نجمه في العلوم الدينية والأخلاقية من خلال حلقات الدروس والمجالس العلمية، نزعت نفسه إلى المزيد فكانت خبراته تتجاوز ذلك بدراية كبيرة بشؤون الحكم والمجتمع وهذا هو الدافع الى بروزه كمؤلف.
- حاول ابن خلدون الوصول إلى المناصب العليا من خلال التقرب من السلاطين والأمراء، فنال المناصب العليا وشغل الدواوين وجالس الأمراء والسلاطين وحظي بمقربة وحب من طرف العديد منهم فكان صاحب اسرار العديد منهم.
- تنوعت مسيرة حياته بين حلاوة السلطان ومرارته، بين المنصب والمقربة وبين السجن والنفي والفرار، بين المديح والعطف.

12جميل صليبا، المرجع نفسه"تاريخ الفلسفة العربية" ص 553.

- تكونت لديه مجموعة من الخبرات والتجارب، كانت بمثابة النبع الغزير الذي استمد منه الآراء والنظريات في بناء الصرح التاريخي والعلمي الذي خلفه لنا من خلال مؤلفاته القيمة وعلى رأسها المقدمة.
- تنوعت رحلاته بين دول المغرب العربي من تونس (إفريقيا آنذاك) إلى الجزائر (بسكرة، قسنطينة، بجاية) إلى المغرب، ثم في النهاية إلى مصر والتي من خلالها قام برحلاته المشهورة إلى الحجاز وإلى فلسطين (القدس) وإلى سوريا (دمشق) والتي كانت آخر رحلاته.
- عاد إلى مصر (القاهرة) توفي ودفن فيها عام (808ه- 1406م)، تاركا وراءه رصيدا علميا جديدا ومتنوعا مازالت الأجيال من كل الشعوب والأمم تتناقله، فمرات تتخذ منه مرجعا تبني على أسسه، ومرات أخرى يكون محل التحقيق والنقد.

ختاما:

يقول الدكتور محمود عبد المولى: "إن ابن خلدون، الذي يعتبر ابن القرن الرابع عشر الميلادي، قد تجاوز عصره بفكره الجبار ذي الطبيعة التركيبية والاطلاع الواسع، والذي قال فيه أرنو لندتوينبي: "أنه تصور وصاغ فلسفة هي لا شك أعظم نتاج أبدعه أي ذهن، في أي عصر، وفي أي بلد" ... ومن المؤسف، أن هذا المفكر الرائد، مازال، مجهولا عند جل المثقفين العرب، وإن كانوا يرددون عنه صفات ومزايا كثيرة، ولكن دون إدراك موضوعي لأهمية آرائه ونظرياته، وسبقها لأحدث النظريات التاريخية والاجتماعية والاقتصادية والتربوية وخاصة معاصرة فكره وتحليلاته لأهم القضايا والمشكلات التي تواجه اليوم بلدان العالم الثالث، والوطن العربي جزء منه"[13].

13محمود عبد المولى، ابن خلدون وعلوم المجتمع، الدار العربية للكتاب، ليبيا –تونس، 1980، ص ص 8-9.